أساليب الاستمالة العاطفية في كتاب «الإمامة والسياسة» (دراسة في البنية والدلالة)

بقلم: عبد الحافظ زيد
جامعة دار السلام كونتور فونوروكو إندونيسيا

ملخص

تعتبر السقيفة وما جرى فيها من الأحداث بداية حقيقية لاهتمام العرب بسياسة الدولة، على الرغم من وجود النشاطات السياسية التي أجريت قبل ظهور الإسلام بين القبائل العربية. فالسقيفة تعتبر نقطة تحول للنظام والفكر السياسي العربي من النظام القبائلي الضيق إلى النظام الدَولي، ومن الفكر الجاهلي إلى الفكر الإسلامي. يتحدث هذا البحث عن القوالب والتعبيرات اللغوية في حقل الخطاب السياسي العربي من خلال كتاب «الإمامة والسياسة» لابن قتيبة الدينوري. فهو يهدف إلى التعرف على تلك التعبيرات والسياقات التي استعملت فيها.

الكلمات الرئيسية: أساليب الاستمالة العاطفية، البنية والدلالة

المقدمة

من الأمور المسلم بها أن قدرة المتلقي على استيعاب الرسالة تأتي على حسب مهارة القائم بالاتصال في توصيلها إليه. ففي عملية الاتصال والاستمالة، يجب أن تكون الرسالة مصحوبة بأنسب وسائل الاستمالات والإقناع. هناك عدة قرارات يجب أن يتخذها المتكلم عند عملية الاستمالة مثل: تحديد الأدلة

التي سوف يستخدمها وتلك التي سوف يستبعدها، والحجج التي يسهب في وصفها، وتلك التي يجب أن يختصرها، ونوعية الاستمالات التي يستخدمها ومدى قوتها. فكل رسالة إقناعية هي نتاج للعديد من القرارات بالنسبة لشكلها ومحتواها، وأغلب تلك القرارات لا يمليها الهدف الإقناعي للرسالة فقط، ولكن تمليها أيضا خصائص المتلقي ومهارات القائم بالاتصال.[١]

هناك ثلاثة أنماط رئيسة من الاستمالات في مضمون كل الرسائل الإقناعية، وهي: الاستمالات العاطفية والاستمالات العقلانية واستمالات التخويف. وسوف يتناول الباحث نمطا واحدا من تلك الأنماط والثلاثة في ضوء الأحداث الموجودة في كتاب «الإمامة والسياسة» وهو الاستمالات العاطفية.

الاستمالات العاطفية

على الرغم من أن الخطاب منقسم إلى المنطوق والمكتوب وانفصل أحدهما عن الآخر بمميزاته الخاصة، إلا أنهما لا يختلفان في أن فيهما ثلاثة عناصر رئيسة، وهي المرسل (أي المتكلم أو المؤلف)، والمستقبل (أي السامع أو القارئ)، والرسالة نفسها (أي اللغة المنطوقة أو المكتوبة)، فتكون عملية الاتصال كما صورها رومان جاكوبسون تتمثل في الصورة التالية:

المرسل ⟵ الناقل (أي الهواء الحامل للصوتيات المرسلة من الفم إلى الأذن أو الكتابة المسجلة لها) ⟵ الرسالة (وفيها الشفرة أي اللغة، والمرجع أي المحتوى) ⟵ الناقل المستقبل.[٢]

---

[١] حسن عماد مكاوي وليلى حسين السيد، **الاتصال ونظرياته المعاصرة**، الطبعة الثانية، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٤٢٢ هـ/٢٠٠١ م)، ص. ١٨٧، نقلا من: جيهان أحمد رشتي، **الأسس العلمية لنظريات الإعلام**، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٨)، ص. ٤٦١ – ٤٦٢.

[٢] أحمد درويش، **الأسلوب والأسلوبية (مدخل في المصطلح وحقول البحث ومناهجه)**، مجلة النقد الأدبي «فصول»، ص. ٦٦.

وفي ضوء الدراسة عن وسائل الاستمالة والإقناع في الخطب السياسية، يودّ الباحث لو يضيف إلى ذلك الرسم البياني عنصرين آخرين لا يقلّان أهمية عن تلك العناصر المذكورة في الرسم، وهما عنصر الاستمالات والإقناع ووسائلهما، باعتبار أن جاكوبسون وضعه ليرسم المراحل التي تمر بها الرسالة بين المرسل والمستقبل بصفة عامة. وإذا رسمنا هذين العنصرين الجديدين، نجد أنهما يندرجان تحت عنصري الشفرة والمرجع، فتصبح الصورة البيانية كما يلي:

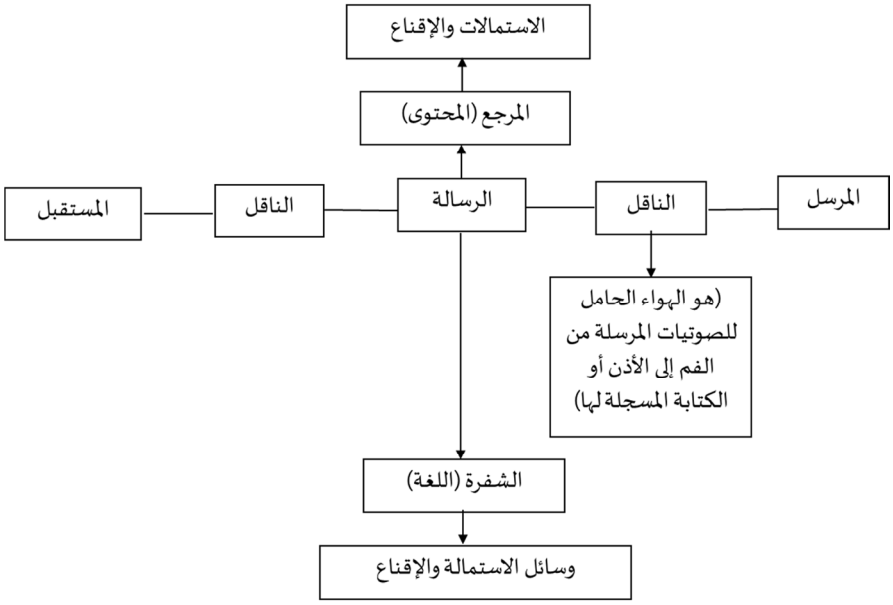

اتضح من الرسم البياني أن عملية الاستمالة تدخل ضمن الرسالة أو الخطاب الذي يلقيه القائم بالاتصال، وذلك لأن الرسالة تحمل عنصر الشفرة (اللغة) التي من خلالها تطبيق وسائل الاستمالة، وتحمل أيضا عنصر المرجع (المحتوى) الذي يعتبر مكانا لأساليب الاستمالة والإقناع. وقد ضمّ جاكوبسون أيضا عنصر التأثير في عناصر الاتصال اللغوي التي كتبها، ولكنه صورها بشكل عام كي ينطبق على جميع أغراض الاتصال.

إن جميع الخطب السياسية، سواء أمكتوبة كانت أم منطوقة، لا تكاد تخلو عن محاولة الاستمالة من قبل المتكلم، فيجد الباحث الكتاب الذي هو بصدده مليء بأنماط الاستمالات. وأول هذه الأنماط هو الاستمالات العاطفية التي تستهدف التأثير في وجدان المتلقي وانفعالاته، وإثارة حاجاته النفسية والاجتماعية، ومخاطبة حواسه بما يحقق أهداف القائم بالاتصال. وهي تعتمد على: استخدام الشعارات والرموز، واستخدام الأساليب اللغوية، ودلالة الألفاظ، وصيغ أفعال التفضيل، والاستشهاد بمصادر، وعرض الرأي على أنه حقيقة، ومعاني التوكيد، واستخدام غريزة القطيع.[٣]

١. استخدام الشعارات والرموز

إن استخدام الشعارات والرموز قد حظي باهتمام بالغ من قبل العالم اللغوي ستيفن أولمان، وإن كان قد تحدّث عنه من زاوية أخرى، وهي زاوية تتعلق بكيفية تغيير المعنى. فهذه الشعارات –كما يقولها مؤلفا «الاتصال ونظرياته المعاصرة»– تستخدم الكلمات البراقة (Glittering Words) التي تحظى باحترام المتلقي دون أن تحدد المعنى الدقيق لها في الموقف الاتصالي.[٤] فهذه العبارة تتوافق مع تلك التي يقولها ستيفن أولمان عن العلامات والرموز، متصلا بالحديث عن اللامساس وحسن التعبير. حيث يقول إن هناك كلمات يحظر استعمالها تحت تأثير عامل اللامساس، نتيجة للخرافات اللغوية والاعتقاد في سحر الكلمة.[٥] وهذه الكلمات كلها تعتبر كلمات براقة، لأنها تحظى باحترام المتلقي ويعرف معناها دون تحديده في الموقف الاتصالي.

ولم تقم العلامات والرموز بتحديد معانيها بنفسها، بل لا بد من

[٣] حسن عماد مكاوي وليلى حسين السيد، **الاتصال ونظرياته ...**، ص. ١٨٨.

[٤] المرجع نفسه، ص. ١٨٨

[٥] ستيفن أولمان، **دور الكلمة في اللغة**، ترجمة وتقديم وتعليق: د. كمال بشر، (القاهرة: دار غريب، دون سنة)، ص. ٢٠٣، بتصرف.

وجود خبرة سابقة تدل على المقصود منها. وعلى سبيل المثال، فقد اعتاد العالم النفسي الروسي بافلوف (Pavlov) أن يحدث صفيرا ذا نغمة خاصة وقت تقديمه الطعام لكلبه. ومن ثم حدث ترابط وثيق بين منظر الطعام ورائحته وطعمه وبين الصوت الذي يصاحب تقديم الطعام بانتظام. كل هذه الانطباعات الحسية كونتْ جزءً من خبرة عامة متكررة. وبعد أن اطمأن بافلوف إلى استقرار هذه القرائن الحسية، عمد ذات يوم إلى إحداث الصفير ولكن دون إحضار الطعام. فوجد أن الكلب قد أظهر كل علامات توقع الطعام، وكان اللعاب الذي يثيره إحضار الطعام عادة إحدى هذه العلامات، كل الذي حدث هو أن جزءً من الخبرة قد انفصل عن بقية الأجزاء، وكان هذا الجزء وحده كافياً لاستدعاء بقية القرائن.[٦]

اتضح من المثال السابق أن الشعارات والرموز تعتمد على خاصية التبسيط المخل لعملية التفكير (Over Simplification Device) واختزال مراحله المختلفة عن طريق إطلاق حكم نهائي في شكل مبسط، مما يجعل المتلقي ينقل هذه الشعارات والرموز دون أن يمرّ بمرحلة التفكير.[٧] ولم يكن أمرا مبالغا فيه إذا قلنا إن الكلب يفكر في فك الرموز الموجهة إليه كما يفكر الإنسان فيها، باعتباره حيواناً يتميز بالمهارة وسرعة الاستجابة للتعليم والتدريب. فحضوره عند سماعه الصفير مع وجود اللعاب في فمه يدل على أنه يستجيب لرموز قد تعرّف عليها من قبل دون بذل المجهود المتمثل في عملية التفكير في حلها.

إن التباين الموجود بين الأفراد قد تمحى صناعيا بهذه الرموز فيصبح التفاهم ممكنا لامتلاكها مدلولاً عاما متفقا عليه بين أفراد الجماعة، وبذلك يصبح التفاهم ممكنا على أساس هذه الرموز العامة التي حلت محل التجارب

[٦] **المرجع نفسه**، ص. ٣٢ – ٣٣.

[٧] حسن عماد مكاوي وليلى حسين السيد، **الاتصال ونظرياته ...**، ص. ١٨٨

الفردية.[٨] فاللغة تمتلك قيمة معينة تتحول معها في مجتمع معين إلى ما يشبه الرمز الجبري بحيث تثير من خلال طرحها مجمل القيم المرتبطة بها، بصرف النظر عن علاقة هذه القيم بالمعنى اللغوي الأولي، أو بالمعنى القاموسي.

ففي ظل الأحداث التي دونها ابن قتيبة في كتابه، يجد الباحث أن الثقافة الإسلامية قد أحدثت ثورة لغوية عظمى في الألفاظ العربية، وتحديدا في معانيها المعجمية. فقد أوجدت وأضافت في المعجم العربي كلمات ذات معان جديدة وقِيَم أهم من ذي قبل، على سبيل المثال كلمة «الأنصار». وأهمية معنى هذه الكلمة تنبع عن قول رسول الله وعباراته. وقد ساعدت الظروف التي استعملت فيها على زيادة أهميتها، فأصبح لها معنى أهم من معناها الأصلي. فقد قال رسول الله: «إنه لم يمت نبي قط إلا خلف وراءه تركة، وإن تركتي فيكم الأنصار رضي الله عنهم، وهم كرشي التي آوي إليها، أوصيكم بتقوى الله تعالى، والإحسان إليهم، فقد علمتم أنهم شاطروكم وواسوكم في العسر واليسر، نصروكم في النشط والكسل، فاعرفوا لهم حقهم، واقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم».[٩]

لم يكن لكلمة «الأنصار» قبل هجرة رسول الله معنى سوى أنها تعني «هؤلاء الذين يعينون الغير على دفع ضدّ أو ردّ عدوّ»[١٠]. ثم ازداد مدلول الكلمة بعد تلك العبارات التي قالها رسول الله، وأصبح في أذهان الناس معنى لها متفق عليه، وترسخت في أفكارهم مكانتها التي تجعلها رمزا للإخلاص والأمانة. فهذه العبارات –وهي: «وإن تركتي فيكم الأنصار رضي الله عنهم»، و«وهم كرشي التي آوي إليها»– قد أضافت لها معان أخرى زائدة عن المعنى الأول.

---

[٨] **المرجع نفسه**، ص. ١٨٩، بتصرف.

[٩] ابن قتيبة الدينوري، **الإمامة والسياسة**، تعليق ووضع الحواشي: خليل المنصور، الطبعة الأولى، (بيروت: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧ م – ١٤١٨ هـ)، ص. ٧.

[١٠] الأب لويس معلوف، **المنجد في اللغة والأعلام**، مادة: ن ص ر، الطبعة الثالثة والثلاثون، (بيروت: دار المشرق، ١٩٩٢)، ص. ٨١٢

وإذا أمعنا النظر، نجد أن رسول الله قد استخدم كلمات براقة في عبارته بغرض استمالة الناس، وهي عبارة «إنه لم يمت نبي قط إلا خلف وراءه تركة، وإن تركتي فيكم الأنصار رضي الله عنهم» و«وهم كرشي التي آوي إليها» وما بعدها من الجمل التي تعتبر تكملة لها لغرض ترسيخ معناها في نفس المتلقين الأنصار. فقد عرف رسول الله من غلامه أن الأنصار يبكون ومعنويتهم تنخفض. فخرج إليهم وقال ما قال، حتى انصرفوا وقلوبهم هادئة مطمئنة.

فقد استهل رسول الله قوله بجملة تحظى باحترام المتلقين واستخدم فيها كلمات براقة، واختتم بوصية يقصد بها بيانا وتوكيدا لمكانة الأنصار في قلبه عليه الصلاة والسلام.

وفي ظل هذه الأحداث، يجد الباحث مثالا آخر للاستمالة باستخدام الرموز، وهو عندما رفضت عائشة دعوة أبيها –أبي بكر– ليصلي بالناس كما أمرها رسول الله، ودعت بدلا منه عمر بن الخطاب، [فأتى فسلم، ففتح رسول الله عينيه فرد السلام، ثم «أطرق عنه»][١١] أي سكت ولم يتكلم.[١٢] إن معنى السكوت في هذه الحالة هو أن رسول الله لا يريد عمر، وإنما يريد غيره. فعندما علم عمر بعدم رغبة رسول الله في لقائه خرج من داره صلى الله عليه وسلم.

نرى في هذه الأحداث أن رسول الله لم يُبْدِ عدم رغبته في لقاء عمر بالقول أو عبارات كلامية أخرى، وإنما يكفيه الإطراق عنه، وهذا أبلغ تعبير لذلك الغرض إذ إن الإطراق عن شخص له مدلول عام متفق عليه، وهو عدم الرغبة في اللقاء أو الاتصال بذلك الشخص، إما لعدم الحاجة إليه وإما لوجود خلاف بينهما، أي بين المتكلم والمخاطب. وفي الأحداث السابقة نرى أن سبب إطراق رسول الله عن عمر هو عدم حاجته صلى الله عليه وسلم إليه.

---

[١١] ابن قتيبة الدينوري، **الإمامة ...**، ص. ٧.

[١٢] الأب لويس معلوف، **المنجد ...**، مادة: ط ر ق، ص. ٤٦٥.

٢. استخدام الأساليب اللغوية

يعد حسن اختيار الأساليب اللغوية من أقوى وسائل الاستمالة لدى القائم بالاتصال، إذ يستطيع بها إيصالَ أفكاره إلى المتلقين بصورة أقرب وأوقع إلى قلوبهم. رب متلق لا تترسخ في قلوبهم رسالة القائم بالاتصال إلا بعد استخدامه أساليب بلاغية تمكّن الغاية المنشودة من الرسالة في ذهن المتلقي من خلال تجسيدها إلى أشياء أقرب إليه.

فانطلاقا من هذه الوظيفة التي تؤديها الأساليب البلاغية، يجد الباحث بعض اللغويين يعرفون البلاغة (في إطار كلامهم عن علاقة البلاغة بالتداولية Pragmatique)[١٣] بأنها «فن الوصول إلى تعديل موقف المستمع أو القارئ»، ونجد أيضا تعريف الباحث الألماني (لوسبرج Lausberg) لها بأنها «نظام له بنية من الأشكال التصورية واللغوية؛ يصلح لإحداث التأثير الذي ينشده المتكلم في موقف محدد». ويرى (ليتش Leitch) «أن البلاغة تداولية في صميمها؛ إذ إنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما».[١٤]

نرى من التعريفات الثلاثة السابقة أن العلاقة التي أحدثتها البلاغة بين القائم بالاتصال والمتلقي هي علاقة التأثير والتأثر. فقولنا: «الأدلة واضحة مثل الشمس» هو من أبسط أمثلة لهذا النوع من العلاقة. فالقائل (في المقام الذي تستعمل فيه هذه العبارة) يريد أن يؤثر آراء الذين يتابعون الأحداث ليقوموا إلى

---

[١٣] التداولية تعني الاستعمالية، فـ «pragmatique» تعني دراسة استعمالية، أي دراسة كيفية استعمال الناطقين للغة في حالات الخطاب الملموسة، وتقال أيضا: البراغماتية. انظر: **المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات (انجليزي – فرنسي – عربي)**، مكتب تنسيق التعريب، (تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٩)، ص. ١١١.

[١٤] صلاح فضل، **بلاغة الخطاب وعلم النص**، سلسلة عالم المعرفة، رقم مسلسل: ١٦٤، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٤١٣/١٩٩٢)، ص. ٩٧ – ٩٨، بتصرف.

جانبه، وفي الوقت نفسه إنه قد ألقى التهم إلى الخصم أو الجهة التي يقصدها.

وهناك أنواع كثيرة من الأساليب البلاغية التي يستخدمها القائم بالاتصال، منها: التشبيه، والاستعارة، والكناية، أو الاستفهام الذي يخرج عن كونه استفهاما حقيقيا إلى معنًى آخرَ مجازيٍّ كالسخرية والاستنكار.[١٥]

ومن أمثلتها قول رسول الله لعائشة لما رفضت دعوة أبي بكر ليصلي بالناس، فقال لها: «إنكن صواحبات يوسف عليه السلام»[١٦] أي مثلهن في كثرة الإلحاح.[١٧] إن صواحب جمع صاحبة، والمراد أنهن مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن ثم إن هذا الخطاب وإن كان بلفظ الجمع فالمراد به واحد، وهي عائشة فقط، كما أن صواحب صيغة جمع والمراد زليخا فقط. ووجه المشابهة بينهما في ذلك أن زليخا استدعت النسوة وأظهرت لهن الإكرام بالضيافة ومرادها زيادة على ذلك وهو أن ينظرن إلى حسن يوسف ويعذرنها في محبته، وأن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن أبيها كونَه لا يسمع المأمومين القراءة لبكائه، ومرادها زيادة على ذلك وهو ألا يتشاءم الناس به. وقد صرحت هي فيما بعد ذلك فقالت: لقد راجعته وما حملني على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلا قام مقامه أبدا.[١٨]

إن تلك العبارة التي قالها رسول الله لعائشة تحمل في طياته معاني التوبيخ والاستنكار وإن لم يقلها في كلامه، ويكون تأثيرها أوقع في نفس عائشة بدليل أنه عندما قال لها «ادعون لي حبيبي» للمرة الثانية بعد خروج عمر من داره، وجد عائشة ما تزال تجادله حتى قال هذه المقولة.

---

[١٥] حسن عماد مكاوي وليلى حسين السيد، **الاتصال ...**، ص. ١٨٩.

[١٦] ابن قتيبة الدينوري، **الإمامة ...**، ص. ٨.

[١٧] انظر: **شرح سنن النسائي**، رقم الحديث: ٨٢٤، الكتاب: الإمامة، الباب: الائتمام بالإمام يصلي قاعداً.

[١٨] انظر: **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، رقم الحديث: ٣٦٠٥، الكتاب: المناقب عن رسول الله، الباب: في مناقب أبي بكر وعمر كليهما).

٣. دلالات الألفاظ

إذا كانت الأساليب اللغوية مثل: التشبيه والاستعارة والكناية تحاول اكتساب عواطف المتلقين عن طريق تأثير وجدانهم بطريقة خفية، فتكون الطريقة الثالثة (أي دلالات الألفاظ) من أساليب التأثير والاستمالة بطريقة أوضح وأجلى من سابقتها، لأنها تعتمد بشكل أساسي على دلالات الألفاظ المستخدمة في عملية الاستمالة. «ويمكن تطبيق ذلك باستخدام كلمة أو صفة أو فعل، تكون محملة بمشاعر معينة. ويلاحظ أن بعض هذه الألفاظ في أصلها اللغوي هي ألفاظ محايدة كلفظ «ادعى»[١٩] إلا أن معيار الحكم هو ما جرى العرف عليه في استخدام اللفظ، وهو ما يطلق عليه علماء اللغة «الحقيقة العرفية للفظ»».[٢٠]

وبالنظر السريع إلى كتاب «الإمامة والسياسة» نجد أن هذا النوع من الاستمالة يعد من أكثرها ورودا واستعمالا في الخطب. فقد استخدمها معظم الأفراد المذكورة في الكتاب لاستمالة مخاطبيهم وتأثير آراءهم. ومن أمثلتها: عندما أتي بلالٌ المؤذنُ مخبراً رسولَ الله –وهو عليه الصلاة والسلام في مرضه الذي قبض فيه– أنه قد حان موعد الصلاة، فتح النبي عينيه، وقال لنساءه: ادعون لي حبيبي. فعرفت عائشة رضي الله عنها أنه يريد أبا بكر، فقالت: أرسل إلى عمر، فإن أبا بكر «رجل رقيق»، وإن قام مقام رسول الله «افتضح من البكاء», وعمر «أقوى منه».[٢١]

قد رأينا في خطاب عائشة أنها وصفت أبا بكر وعمر بصفتين لهما دلالتان متضادتان. فتصف الأول بأنه «رجل رقيق» وزادت بيانا لوصفها أنه

---

[١٩] من معانيها: ادعى الشيء أي تمناه – ادعى إلى غير أبيه أي انتسب، وادعى في الحرب أي اعتزى أي قال أنا فلان ابن فلان – وادعى الشيء أي زعم أنه له حقاً أو باطلاً، وادعى به أي نسبه إليه وزعم أنه له. انظر ابو لويس معلوف: **المنجد ...**، مادة: د ع و، ص. ٢١٦.

[٢٠] حسن عماد مكاوي وليلى حسين السيد، **الاتصال ...**، ص. ١٨٩.

[٢١] ابن قتيبة الدينوري، **الإمامة ...**، ص. ٧-٨.

لرقته سوف «يفتضح من البكاء» إذا قام مقام رسول الله. ووصفت الثاني بأنه «رجل قوي»، وفي وصفها بيان ضمني بأن عمر لن يفتضح من البكاء إذا قام مقام رسول الله.

هذا، وقد غيرت عائشة رأي المتلقي في صلاحية أبي بكر لأن يكون إماماً للناس في الصلاة، وذلك بإيهامهم بأنه رجل رقيق قد يفتضح من البكاء إذا أَمَّ الناس. فتكون «الرقة» في هذا المقام صفةً تخريبيةً يجب ألاّ يتصف بها من كان في عاتقه مسئولية الإمامة. وفي نفس الوقت، كان خطاب عائشة قد أثر المتلقي وألهمه بأن الأنسب لهذه المسئولية هو عمر بن الخطاب لأنه أقوى من أبي بكر.

ولم تكن «الرقة» صفة تخريبية قط، إذ كان معناها الأصلي «ضد الغلظة والثخونة – والرحمة – والاستحياء»[٢٢] حتى وإن اقتُرنت بالمسئولية والإمامة، ولكن هذا المعنى الإيجابي لها قد يتغير إلى ضده السلبي إذا استُخدم في مثل هذا المقام.

٤. عرض الرأي على أنه حقيقة

إن عملية الاتصال عبارة عن العلاقة بين القائم به والمتلقين، وهذه العلاقة في أغلب أحواله تتحرك في اتجاهين، إلا في الاتصال الجماهيري الذي تتحرك فيه العلاقة بينهما في اتجاه واحد، وهو من الأول إلى الثاني. فقبل أن يجري شخص ما عملية الاتصال بغرض استمالة المخاطب أو المتلقي، ينبغي له أن يراعي طبيعة العلاقة بينه وبين المتلقي ليتمكن بذلك من استمالته بالسهولة.

في البداية يجدر بنا النظر إلى وسائل الاستمالة السابقة وإلى هذه الوسيلة التي سوف يتحدث عنها الباحث من حيث مطابقتها مع نوعية المتلقين. فموقف القائم بالاتصال من المتلقي الأدنى منه معرفةً بموضوع الخطاب يجب

[٢٢] أبو لويس معلوف، **المنجد ...**، مادة: ر ق ق، ص. ٢٧٣.

أن يختلف عن موقفه من المتلقي الأعلى معرفة به منه.

وقد تحدث الأدباء القدماء –بشكل غير مباشر– عن كيفية إلقاء الرأي والخطاب. فإذا نظرنا إلى الوسائل السابقة، نجد أنها تنطبق ولم تختلف كثيرا عما قاله الجاحظ عن طبيعة التفاعل بين المتلقي والمبدع. فهذا الأديب يجعل للمتلقي وجودا –برغم سلبيته– يكاد يتغلب على وجود المبدع، بل يجعل وجود المبدع معلقا على ردود الفعل عند المتلقي المثالي، فنجده يطالب صاحب الصناعة الأدبية إذا أنتج شيئا من الأدب فقرض قصيدة، أو حبّر خطبة، أو ألف رسالة، بألا يتعجل تقديم نفسه، ثقةً وإعجاباً بثمرة عقله، ولكن عليه أن يقدم ما أنتجه إلى (العلماء) بطريقة غير صريحة، ثم ينتظر ردود الفعل الخارجية التي تأتي من الحواس في شكل إيجابي، فإن تحقق ذلك، كان مسموحا للذات المبدعة أن تتجلى مسفرة عن نفسها، وعن دورها الإبداعي، أما إذا كانت ردود الفعل سالبة، وتكرر هذا الموقف السالب، فإن الذات يجب أن تتوارى، بل عليها أن تختفي من ميدان هذا الصناعة.[٢٣]

ثم قال الدكتور محمد عبد المطلب معلّقاً رأي الجاحظ إن الاتكاء على ردود الفعل لدى المتلقي لا يؤثر على المبدع فحسب، بل إن أثره الأول يكون في الخطاب الأدبي بالرفض أو القبول، ثم ينزاح الأمر إلى المبدع تبعا.[٢٤]

بالنظر السريع إلى كتاب «الإمامة والسياسة»، نجد أنه لا يستخدام شخصيات الكتاب عبارتيْ «لا شك أنه» أو «في الحقيقة» في محاولتهم لاستمالة الغير، ولكنهم استخدموا القسم أو حرف «قد» أو غيرهما من الألفاظ الدالة على تأييد الخطاب وعرضه على أنه حقيقة، فنعرف الغرض من الخطاب من خلال سياقه. وذلك ككتاب معاوية إلى علي، حيث قال: «أما بعد، فلعمري لو

[٢٣] المرجع السابق: **قضايا الحداثة ...**، ص. ٢٣٤ – ٢٣٥، عن البيان والتبيين للجاحظ، ج. ١، ص. ٢٠٣.

[٢٤] **المرجع نفسه**، ص. ٢٣٥.

بايعك القوم الذين بايعوك وأنت بريء من دم عثمان، كنت كأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين، وخذلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل وقوي بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإذا دفعتهم كانت شورى بين المسلمين، وقد كان أهل الحجاز الحكام على الناس وفي أيديهم الحق، فلما تركوه صار الحق في أيدي أهل الشام، ولعمري ما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة، ولا حجتك على طلحة والزبير، لأن أهل البصرة بايعوك، ولم يبايعك أحد من أهل الشام، وإن طلحة والزبير بايعاك ولم أبايعك. وأما فضلك في الإسلام، وقرابتك من النبي عليه الصلاة والسلام فلعمري ما أدفعه ولا أنكره».[٢٥]

كما سبق ذكره في السابق أن موقف القائم بالاتصال من المتلقي الأدنى منه معرفةً بموضوع الخطاب يجب أن يختلف عن موقفه من المتلقي الأعلى معرفة به منه. فمن أجل استمالة المتلقي من النوع الأول ينطبق عليه جميع وسائل الاستمالة بما فيها هذه الوسيلة التي نحن بصددها، وأما المتلقي من النوع الثاني، فلا تنطبق عليه هذه الوسيلة الأخيرة، لأنه أكثر من القائم بالاتصال إلماماً واستيعاباً بالموضوع.

فعلى هذا الأساس، فقد أخطأ معاوية في استخدام وسيلة الاستمالة عند مكاتبته علياً بقصد إظهار عدم صلاحيته للخلافة. وظهر هذا الخطأ جلياً من خلال جواب علي إلى معاوية،[٢٦] حيث قال: «... زعمت أنك إنما أفسد عليك

[٢٥] ابن قتيبة الدينوري، **الإمامة ...**، ص. ٨٥ – ٨٦.

[٢٦] لتكون الأمور أكثر موضوعية، أوضِّح هنا سبب ترجيحي آراء عليٍّ في تلك المسألة التي كتبها معاوية في كتابه وسببَ استنتاجي أن معاوية قد أخطأ في اختيار وسيلة استمالة علي. فكان معاوية قد كاتب كلاً من ابن عمر وسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة الأنصاري قبل مكاتبته عليا. وكان كل كتابه يحمل تحريضا على معارضة خلافة علي، فأجاب إليه كلُّهم بإجابة تكاد تكون متشابهة في مضمونها. وكان جواب سعد بن أبي وقاص أكثرها وضوحاً، حيث قال: «أما بعد، فإن أهل الشورى ليس منهم أحق بها من صاحبه، غير أن عليا كان من السابقة، ولم يكن فينا ما فيه، فشاركنا في محاسننا، ولم نشاركه في محاسنه، وكان أحقنا كلنا بالخلافة، ولكن مقادير الله تعالى التي صرفتها عنه حيث شاء لعلمه وقدره. وقد علمنا أنه أحق بها منا، ولكن

بيعتي خطيئتي في عثمان، ولعمري ما كنت إلا رجلا من المهاجرين، أوردت كما أوردوا وأصدرت كما أصدروا، وما كان الله ليجمعهم على الضلال، ولا ليضربهم بالعمى، وما أمرت فيلزمني خطيئة عثمان، ولا قتلت فيلزمني قصاص القاتل. أما قولك: إن أهل الشام هم الحكام على الناس، فهات رجلا من قريش الشام يقبل في الشورى ، أو تحل له الخلافة، فإن سميت كذّبك المهاجرون والأنصار، وإلا أتيتك به من قريش الحجاز. وأما قولك: ندفع إليك قتلة عثمان، فما أنت وعثمان؟ إنما أنت رجل من بني أمية، وبنو عثمان أولى بعثمان منك... وأما تمييزك بين الشام والبصرة وذكرك طلحة والزبير، فلعمري ما الأمر إلا واحد، إنها بيعة عامة، لا ينثني عنها البصير، ولا يستأنف فيها الخيار، وأما ولوعك بي في أمر عثمان، فوالله ما قلت ذلك عن حق العيان ولا عن يقين الخبر...».[٢٧]

تبين من رد علي إلى معاوية أن هذه الوسيلة لا تنفع لمخاطبة من هو أكثر معرفة بالأمر من القائم بالاتصال. وإذا افترضنا أن معاوية لا يكون أدنى من علي معرفة بأمور تتعلق بالاستخلاف، ولكنه قد أعمتْه مقتلُ عثمان واتهامُه عليا بقتله وولوعُه بالخلافة. فلذلك لا ينبغي له أن يختار هذه الوسيلة لاستمالة علي وعرض رأيه على أنه حقيقة على الرغم من عدم الاتفاق والإجماع عليها.

٦. استخدام غريزة القطيع Bandwagon

ويقصد بغريزة القطيع هنا استغلال الضغط الذي يجعلنا نتوافق مع الجماعة المرجعية التي ننتمي إليها، ويطلق عليه لوبون «العدوى النفسية».[٢٨] ولم

لم يكن بد من الكلام في ذلك والتشاجر، فدع ذا. وأما أمرك يا معاوية، فإنه أمر كرهنا أوله وآخره. وأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما لكان خيرا لهما. والله تعالى يغفر لعائشة أم المؤمنين.» ومما يجدر الإشارة إليه، أن سعد بن أبي وقاص من أهل الشورى، فيكون علمه بأحقية علي بالخلافة أكثر من معاوية. فعلى هذا الأساس استنتجتُ أن معاوية قد أخطأ في اختيار وسيلة استمالة علي.

[٢٧] ابن قتيبة الدينوري، **الإمامة ...**، ص. ٨٦.

[٢٨] **حسن عماد مكاوي وليلى حسين السيد، الاتصال ...**، ص. ١٩٠.
ولوبون Gustav Lebon (١٨٤١ – ١٩٣١) هو كبيب وعالم اجتماعي فرنسي، رائد علم

تكن هذه الوسيلة غريبا في مجال السياسة، إذ إن الوقائع التي تحدث بيننا تؤكد لنا أنها من أكثر الوسائل استعمالا وأسرعها نجاحا لكسب قلوب الناس وأحسنها، وذلك لأنها تتوافق مع طبيعة الإنسان التي كثيرا ما توافق رأي الأغلبية.

وهناك اتفاق بين الباحثين على أن التأثيرات التي تحدث من أجهزة الإعلام كثيرا ما يأخذ معظمها شكل تدعيم الاتجاهات والآراء السائدة، بمعنى أن مضمون أجهزة الإعلام يعمل على تدعيم الآراء السائدة لدى الجمهور أكثر مما يعمل تغيير هذه الآراء. وهي خلاصة تتفق مع الحقيقة القائلة بأن الناس تميل إلى رواية وسماع المضامين المفضلة أو التي تتفق مع اهتماماتهم أو توقعاتهم. وأن الجمهور يستجيب لمضمون أجهزة الإعلام الذي ينسجم مع هذه التوقعات وعلى ضوء ذلك يتم رفض أو قبول أي مضمون.[٢٩]

ولذلك فإن المعلومات التي تتفق مع الرأي السائد يزيد احتمال تأييد الآخرين لها، في حين أن الرسائل التي تردد رأي الأقلية لا يحتمل أن تجذب المؤيدين. فقد أثبتت دراسات عديدة أن الجماهير تعتنق بعض الآراء، لأنها تؤمن ـــ ببساطة ـــ بأن تلك الآراء تتفق مع رأي الأغلبية أو الرأي الشائع.[٣٠]

وقد يُعدّ ضروريا لمن لم يَحْظَ رأيه بأغلبية، أن يبدأ باستمالة الناس بالوسائل السبع السابقة قبل أن يستخدم هذه الوسيلة، وذلك لأن نجاح هذه الوسيلة يُبنى أساسا على كسب ثقة عدد كبير من رأي الناس أولاً.

نستنتج من هذا المثال أن وسيلة «غريزة القطيع» تعد بمثابة آخر وسائل الاستمالات، إذ إنها تحتاج إلى أغلبية الرأي التي لا تأتي إلا من خلال استخدام تلك الوسائل السابقة.

الاجتماع. دعا إلى تفسير السلوك الجماعي بالمقارنة بين نفسيات فرية. من كتبه: «نفسية الجماهير» و«علم النفس في الأزمنة الجديدة». (انظر أبو لويس معلوف، **المنجد ...**، ص. ٤٩٥.

[٢٩] المرجع السابق: **تكنولوجيا الاتصال ...**، ص. ١١٠.

[٣٠] **المرجع نفسه**، ص. ١٩٧ – ١٩٨.

الخاتمة

تتميز أساليب الخطاب السياسي بالإيجاز وقوة إيقاعها في النفس، وذلك لأنها غالبا تستخدم لاستمالة الناس وإقناعهم بصحة ما يقوله صاحب الخطاب. واللغة العربية مع تنوع أساليبها البلاغية تجعل الكلام أوقع في نفوس السامعين لأن مشاعرهم تتجاوب مع مشاعر صاحب الخطاب من خلال أساليبهم. وهذا ما يراه الباحث واضحا من خلال الأحداث السياسية التي تقع بين المسلمين في كتاب «الإمامة والسياسة».

مصادر البحث

أولمان، ستيفن. دون سنة. **دور الكلمة في اللغة**، ترجمة وتقديم وتعليق: د. كمال بشر، (القاهرة: دار غريب).

تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، رقم الحديث: ٣٦٠٥، الكتاب: المناقب عن رسول الله، الباب: في مناقب أبي بكر وعمر كليهما).

درويش، أحمد. **الأسلوب والأسلوبية (مدخل في المصطلح وحقول البحث ومناهجه)**، مجلة النقد الأدبي «فصول».

الدينوري ابن قتيبة. ١٩٩٧ م – ١٤١٨ هـ. **الإمامة والسياسة**، تعليق ووضع الحواشي: خليل المنصور، الطبعة الأولى، (بيروت: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية).

السيد، حسن عماد مكاوي وليلى حسين. ١٤٢٢ هـ/٢٠٠١ م. **الاتصال ونظرياته المعاصرة**، الطبعة الثانية، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية).

فضل، صلاح. ١٤١٣/١٩٩٢. **بلاغة الخطاب وعلم النص**، سلسلة عالم المعرفة، رقم مسلسل: ١٦٤، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)

المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات (انجليزي – فرنسي – عربي)، مكتب تنسيق التعريب، (تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم).

معلوف، لويس. ١٩٩٢. **المنجد في اللغة والأعلام**، الطبعة الثالثة والثلاثون، (بيروت: دار المشرق،).